٢ ـ صاحب السلطان الحقيقي

قدمت صاحب السلطان الحقيقي إلى قرائي في المرة السالفة أو بالأحرى قدمتهم إليه ! فهو من يقدم إليه الناس جميعاً ولا يقدم قط إلى أحد ، ومن كان يماري في ذلك فليشهد مجلساً من مجالسه ثم لينظر هل يقدم هو مهما كان من خطره إلى صاحب السلطان أم يقدم صاحب السلطان إليه

حرصت بعد المرة الأولى على رؤيته حرصاً أنساني كل متعة وحقر في نفسي كل فرجة فأعددت منظاري وظللت أنتظر بصبر فارغ وشوق نازع حتى حانت الفرصة فدعاني إلى داره رجل من أطراف القرية رأيت وجهه يقطر السرور وهو يفضي إلى بما نال من شرف ضيافته الشيخ في تلك الليلة

وتفضل الرجل فعد شاباً من ذوي قرباي كان مني فقبل كما قبلت واشترط مثلما اشترطت ألا نمكث حتى العشاء ، فما كان كلانا يتطلع إلا إلى رؤية الشيخ . وكان رفيقي الشاب قد تشوق إلى رؤيته بعد ما سمعه عنه وكان وقد ظفر بالأمس القريب بإحدى الإجازات العليا تملأ رأسه بفلسفة الفلاسفة . ولعله كان يرغب أن يعد لنفسه منظاراً مثل منظاري ، أو لعله كان يريد أن يطبق على الشيخ ما في رأسه من فلسفة . فقد حدثني أنه يعلم من أمر هؤلاء الأشياخ أنهم جد أذكياء وأنهم يسيرون على قواعد « سيكولوجية » دقيقة تغيب عن الأغفال من العامة .

وكان صاحبي ونحن في الطريق إلى تلك الدار التي احتوت الشيخ وحاشيته يحدثني ضاحكا أنه كف يده في الصباح بعد أن هم بالتصدق على مسكين بنصف ريال وأنه يخشى أن يظهر الشيخ كرامته فيفضح بخله في المجلس

وبلغنا الدار فإذا حشد من أنماط الناس من رجال ونساء قرب الباب ، وإذا الشارع أمامها مكدوس مرشوش ، وإذا وفود المدعوين يدخلون الدار قبلنا ؛ وإذا الدخان يتصاعد من النوافذ . ولما كنا في وسط الدار لم يفت منظاري ذلك النشاط الذي ملأها ، فهؤلاء النسوة مشتغلات كل منهن بعمل يتصل بإعداد الطعام ، وفتيان الدار يدخلون ويخرجون من المنظرة التي جلس فيها الشيخ وفي أيديهم « صينيات » القهوة والقرفة والشاي ووجوههم جميعاً متهللة مستبشرة

ودخلنا المنظرة فهب من فيها جميعاً وقوفاً لتحيتنا إلا الشيخ ؛ ولأهل الريف أريحية جميلة في اللقاء والترحيب . ورفع الشيخ عينيه وهو متكئ على وسادتين في صدر القاعة ، وما إن رآنا من عنصر المطربشين حتى سرت في وجهه غمة أسرع فأخفاها ؛ وتكلف البشاشة ، وسرنا نحوه نتظاهر أنه يهم بالوقوف فأقسمت عليه ألا يفعل ؛ ومد إلينا يده وهو جالس فسلمنا ، وما كان أعظم دهشة هؤلاء الوقوف من الرجال حينما رأونا لا نقبل يد الشيخ ! وما كان أعظم أسفي أن أكدر عليهم صفوهم بهذا الذي فعلت وصاحبي ! ولكن ما الحيلة وعندي أن أبكيهم جميعاً أسهل علي من أن ألثم تلك اليد الكريمة ؟

وأرادوا أن يفسحوا لنا مكاناً في صدر الحجرة ولكن الشيخ حريص على أن يظل دراويشه إلى جانبه ؛ وأنقذت أنا الموقف فأشرت عليهم بإحضار كرسيين لنا قرب الباب لنستريح في جلستنا في ملابسنا الأفرنجية . وقبل أن نجلس سألت الشيخ ألا يؤاخذنا إن جلسنا ونحن أعلى منه فطيبت بذلك خاطر صاحب الدار وضيفانه ، ثم قلت إن بركة الشيخ لتمسنا ونحن بعيدان ، فرشقني بنظرة مستريبة ثم ردها سريعاً وفي وجهه الراحة والضيق معاً ، فهو مرتاح إلى هذا التكريم الذي يصدقه مني الجلوس وإن لم يصدقه هو ، ثم هو ضائق بخبثي وبحضوري وصاحبي في تلك الساعة

وانجهت الأنظار إلى الشيخ وكان صاحبي من الدهشة كأنه ذهل عن نفسه ؛ وساد السكوت لحظة فما يتكلم أحد حتى يتكلم الشيخ . وكنت قبل دخولنا الحجرة تبينت صوته وهو يتحدث عن المال وأنه عرض زائل ، وعن الجود والبخل ، وفطنت إلى أنه كان في سيرة أحد البخلاء . ولم يفطن صاحبي إلى شيء لدهشته ولأنه لا يعرف صوت الشيخ . وغمغم الشيخ ثم عاد إلى ما كان فيه من حديث ، ولحديث البخل عنده قيمته فقال : « هيه ... سبحان من يرث الأرض ومن عليها ... هو حد منا راح يأخذ حاجة معاه ... إيه نصف ريال ولا نصف جنيه ولا حاجة فارغة زي دي ... ياما فلوس بتروح في المسخرة »

وتشعب الحديث ، وأديرت علينا أقداح القرفة أكثر من مرة ونحن لا نستطيع لما نسمع من الأيمان لها رداً . ثم سمعت صاحب الدار يسأل عن شخص اسمه عمر ورأيت الشيخ ينهض واقفاً ثم يجلس بعد بضعة ثوان ؛ ولكنه لا يلبث حتى ينهض مرة ثانية فعجبت وخفت أن يكون ذلك منه نذيراً بحريق جديد ؛ وما جلس للمرة الثانية حتى صاح صاحب الدار بمن يدعى عمر

كرة أخرى . فهب الشيخ واقفاً من فوره ، فقطعت أنه لن يطيق أن يسمع اسماً من أسماء الخلفاء الراشدين وهو جالس ، وتتبعته أنظر مبلغ ما فى هذا الظن من صحة فاتسق لى القياس كل مرة

وكان ذلك قد ألهانى لحظة عن صاحبى الذى سرت الدهشة فى وجهه لذكر نصف الريال والذى أخذ إجلاله للشيخ وإعانه به يتغلب شيئاً فشيئاً على مظاهر النكران والجحود فى وجهه وخواق العلم والفلسفة فى نفسه ورأسه ! ...

ودخل رجل فشكا إلى الشيخ أن ابنه لا ينام ليله مستريحاً ، وتناول الشيخ ورقاً وقلماً وخط له حجاباً وصرفه فخرج الرجل فرحاً مطمئناً . ودخل ثان فشكا إليه أنه محروم من البنين وأنه يتحرق شوقاً إلى غلام يؤنسه والشيخ ما يطلب . وضحك الشيخ من سذاجته إذ يصرح أمام الناس أو يظن أن الشيخ يطلب شيئاً ، وطلب الشيخ منه مفديلاً فلم يجد معه شيئاً فأخذ طاقيته ووضعها فى حجره وقرأ ثم قرأ وردها إليه وبشره بغلام؛ ونهض الرجل وكأنه يحمل بين يديه ذلك الغلام ...

ودخلت امرأة ملففة فى ثيابها وطرحتها ترجو من الشيخ رقية لوحيدها كى يعيش ، فجاد عليه الشيخ برقية وخرجت المرأة مزهوة ؛ ودخلت بعدها غيرها تستجير ببركة الشيخ ، فإن ابنتها ترتعد جسدها الملتهب وتعكها « اللمونة » حتى ما تفارقها ؛ وفهمت أنا أن المسكينة مريضة بحمى ربما كانت الملاريا ، وأمرها الشيخ أن تحضر وعاء به ماء ، فذهبت فأحضرته ، وتناوله الشيخ فقرأ ثم قرأ ، وصاحبى ينظر دهشاً ، وبصق فيه الشيخ بصقة على رغم علم صاحبى وفلسفته ، وناوله المرأة لتشرب ابنتها من ذلك الماء أثناء الليل ، وكم تمنيت لو قفزت من مكانى فحطمت ذلك الوعاء وأسلت بركته على رأس الشيخ !

ودخل شاب قوى البنية ، بادى الجرأة ، فدنا من الشيخ حتى صرخ الشيخ فى وجهه يطرده ويصيح به : أيها العاصى ، ابعد عنى . وتوسل الشاب إليه حتى سمح له بالجلوس، وأمر الشيخ دراويشه ، فطرحوا ذلك الفتى ورفعوا رجليه على نحو ما يفعل معلم الصبيان فى المكتب ، وتناول الشيخ عصاه وهم يضربه . فاستجار الفتى بالنبى ، فأتى الشيخ العصا وهم واقفاً ، ثم أمر أعوانه فأطلقوه ، وأخذ عليه الشيخ العهود والمواثيق ويده على المصحف ، ثم صرفه والناس يعجبون كيف عرف الشيخ أنه شقى ، ونسوا أن للشيخ دراويش هم مصدر علمه الدنى العجيب

وجاء بعد ذلك أمر حيرنا معاً أنا وصاحبى ، وحار منظارى حتى كدت أشك أن الشيخ قد أفسد على بكراماته سحره ، فقد جىء للشيخ بأربعة فتيان متهمين فى سرقة فجلسوا أمامه يرتعدون فرقاً وكلهم ينكر ما نسب إليه ، ولما يئس منهم الشيخ طلب بيضة بطة أو أوزة فذهب صاحب الدار ليحضرها ولما عاد بها قابله أحد الدراويش عند الباب وأخذها منه ، ثم وضعها فى جيبه حتى طلبها الشيخ فأخرجها وأعطاها إياه أمام أعيننا ووضعها الشيخ تحت يسراه ، ثم قرأ وقرأ وقال إنه سيرفع يده فتتجه البيضة إلى السارق ، ونظر فى وجوه الفتية فأصروا على إنكارهم . وما كان أشد عجبى وعجب الجالسين جميعاً أن رأينا الشيخ يرفع يده فتظل البيضة فى مكانها بضع ثوان ، ثم تبدأ تتدحرج وتقف ، ثم تتدحرج وتقف ، وعظم خوف السارق بطبيعة الحال ، وقبل أن تنحرف البيضة إلى من سرق أخذها الشيخ وقد بعدت عنه نحو ثلاثة أذرع وأمر الفتية أن يخرجوا فيفضى من سرق منهم بسره إلى من يرسله معهم من الدراويش ، وعاد ذلك الدرويش بعد قليل يحمل المصاغ المسروق !

وأقبل من فى الحجرة على الشيخ يقبلون يديه، ونظر إلى صاحبى وقال فى لهجة عجيبة : « وما قولك ؟ بل ماذا يرى منظارك فى هذه المعجزة ؟ » ونهض الشيخ واقفاً فدعا دراويشه ومن جلس معه إلى « حلقة ذكر » وبدأ ذلك الذكر فى حماسة شديدة واشتدت الحركات وارتفعت الأصوات، ونسى الناس أنفسهم حول الشيخ وعظمت الرهبة فى وجه صاحبى الشاب فأمسكت بذراعه مخافة أن يثب فينضم إلى الحلقة !

وكان موعد تقديم الطعام قد قرب فانتظرنا وصاحبى حتى انتهت لحظة التجلى، وخرجنا بعدأن سلمنا من بعد على الشيخ ومن معه وسرنا وصاحبى يسألنى فى لهجة كلهجة طفل خارج من ملعب يستوضح أباه حركة (بهلوان) ؛ ولم نكد نبعد حتى سمعنا من يشاركنا الحديث ، فإذا هو أحد دراويش الشيخ السالفين وهو اليوم من الخارجين عليه ، وقال ضاحكا : طول ما فى البلد مغفلين وأكل العيش سهل . يا سيدنا الأفندى البيضة كانت موجودة فى جيب صاحبنا غير الثانية ، وهى فارغة وفى جوفها خنفسة ... دا شغل احنا عارفينه، وبكرة يا ما يشيل الشيخ من الطيور والسمن والخرفان وهو خارج من البلد . وضحك صاحبى وأخذ يعود إلى جحوده ونكرانه

الضعيف